مجلة الحكمة للدراسات الاجتماعية
Eissn :2600-643x Issn : 2353-0529
المجلد 3 / العـــدد: 1 (2015)، ص: 98-126

قراءة تحليلية نقدية في مشروع مقدمة في علم الاستغراب. (للمفكر حسن حنفي)

الدكتورة: جويدة جاري

كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية- قسم الفلسفة- جامعة الجزائر2

تدل القراءات التاريخية وتثبت الأدلة الاستقرائية أن الفكر في مساره كان تاريخ انقلاب الرأي الجديد على الرأي القديم/ الحاضر على الماضي/ المستقبل على الحاضر/ النظريات الحديثة على النظريات القديمة/ الثورات المعاصرة على الثّورات الحديثة/ السستامات الجديدة على السستامات القديمة/ باراديغم العلم على باراديغم الميتافزيقا/المشروع الجديد على المشروع القديم... الخ.

تاريخ الفكر برمته فضاء واسع من الثنائيات يحركها منطق التناقض في حركة جدلية غير متناهية. تهدم هذه المقولة لتحل أخرى بدلها. تظهر فكرة وتبنى على أنقاضها فكرة أخرى على الصعد كافة.

ضمن هذا السياق نفهم تواتر المشاريع العربية على عددها وتباينها وعدم تواصلها. ولعل مشروع «**التراث والتجديد**» **لحسن حنفي يعد** مشروع العمر أو بالأحرى «**تجربة العمر**» ويأتي هذا المشروع تتويجاً لدراسات مهمة أنجزها **حسن حنفي** في قضايا متنوعة، تعود بداياتها الأولى إلى عام **1965** في أطروحته* التي نال بها شهادة الدكتوراه في باريس والتي حملت مؤشرات المشروع قبل أن ينظّر له على هذا النحو.

تنقسم الخطة العامة لمشروع «**التراث والتجديد**»إلى ثلاثة أقسام أو بالأحرى إلى ثلاث جبهات: هي نفسها الجبهات التي يتكون منها «موقفه الحضاري» وهي :-

1- موقفنا من التراث القديم: وهو القسم الأول **الجبهة الأولى** من الخطة العامة.

L'Exégèse de la phénoménologie - l'Etat actuel de la Méthode phénoménologique et son application phénomiméne Réligieux.

في هذه الجبهة يسعى **حنفي** إلى إعادة بناء العلوم التراثية، أي كل العلوم التي ورثناها تماهياً مع ظروف العصر، حتى يعيد ربط الفكر بالواقع وفي هذا يقول «القسم الأول: موقفنا من التراث القديم تأصيل للقديم وإعادة بناء له على مقتضى متطلبات العصر»[1].

وكل ما يهدف إليه هذا القسم هو أن تدور عملية الحضارة وأن تسير من جديد حتى يعاد ربط الفكر بالواقع والعلوم وبالتاريخ وإذا تحقق إحياء التراث بتجديد قراءته يمكن كما يعتقد إقامة نهضة شاملة تتمثل في إرهاصات الإصلاح والأحياء وتشتمل هذه الجبهة على ثمانية أجزاء كل جزء خاص بعلم قديم.

أما الموقف الثاني فهو الموقف من التراث الغربي :في هذا القسم تتحدد غاية **حنفي** التي يترجمها هذا النص «...يهدف [الموقف من التراث الغربي] إلى بيان حدود الثقافة الغربية ومحليّتها بعد إن ادّعت العالمية والشّمولية»[2]. ويضم هذا القسم هو الآخر خمسة أجزاء. كل جزء يعكس مرحلة تاريخية معينة من حضارة «الآخر» الغرب.

يختم مشروع «**التراث والتجديد**» بالجبهة الثالثة: **نظرية التفسير**. يهدف هذا القسم «إلى التعبير عن حقيقة الوحي ذاتها من دون النظر إلى تحققاته من التاريخ»[3]. كما يهدف إلى إعادة بناء الحضارتين معاً في القسمين السابقين. ويشتمل ثلاثة أجزاء طبقاً لوضع الوحي في التاريخ.و يعكس مرحلة تاريخية معينة من حضارة «الآخر» الغرب.

من القسم الأول صدرت الموسوعة الضخمة «**من العقيدة إلى الثورة**»

([1]) حسن حنفي، **التراث والتّجديد**، ط 4 (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1992)، ص 176.

([2]) المصدر نفسه، ص 181.

([3]) المصدر نفسه، ص 184.

قراءة تحليلية نقدية في مشروع مقدمة في علم الاستغراب. (للمفكر حسن حنفي)

ومؤلفه* «**من النقل إلى الإبداع**» ومؤخراً صدر كتابه: «**من النص إلى الواقع**» أما باقي الأجزاء فلم تصدر بعد. أما فيما يتعلق بالجهة الثانية فقد مكننا **حنفي** من البيان النظري الذي يحمل عنوان **مقدمة في علم الاستغراب**. في حين يبقى القسم الثالث **نظرية التفسير** في طور الإعداد ولم ينجز بعد.

كل المشاريع التي واكبتها النهضة العربية منذ جيل رواد الإصلاح إلى مشاريع جيل الحركة التراثية المعاصرة حملت أفكاراً وطرحت وجهات نظر مشابهة تبعاً **للإتجاه**/ الذي تؤمن به وتعده المرشد في التنظير، ومن ثم فإن مشروع **التراث والتجديد** لم يشذ عن هذه القاعدة حيث كانت له ظروفه التاريخية التي أنتجته، فترة ما بعد الهزيمة برز ليدقق في أسباب الهزيمة ويبرر ما حدث بعدها من صدام بين النظام السياسي وحركة الإخوان المسلمين.

المشروع كله؛ بشقيه دعوة مفتوحة إلى ضرورة إعادة تأسيس وعينا للقضايا والتحديات التي تواجه مجتمعاتنا العربية والإسلامية المعاصرة من خلال ترميم عالم أفكارنا ينقد الطريق المسدود من منظور الرؤية العالمة التي لا يعول عليها في إحداث النهوض المنشود، ولفت النظر إلى المسالك النافذة التي يمكن أن تبعث على الرجاء والأمل في مستقبل أفضل.

في هذا المشروع يطرح صاحبه ثلاثة أسئلة:

السؤال الأول: عن «**التراث القديم**» وهو أهم سؤال وأطوله بما للسلفية من رصيد شعبي في وجدان الجماهير وبما للتراث القديم من رصيد تاريخي على مدى

* كان يفترض أن يصدر بعنوان «**علم الإنسان**» لكن المؤلف آثر لأسباب يشرحها في مقدمة الكتاب أن يصدره بعنوان «**من العقيدة إلى الثورة**» يقع وحده في خمسة مجلدات وكل مجلد في ستمائة صفحة ونيف، وهولا يتناول من كل التراث القديم سوى علم الكلام، كان لنا أن نقدر ضخامة المشروع: ثلاثة آلاف صفحة ونيف للجزء الواحد. وهذا مجهود ينوء به حتى من الناحية الكمية الخالصة. العمل الجماعي للمجامع العلمية ومراكز البحث كما يذهب إلى ذلك **جورج طرابيشي** في كتابه **المثقفون العرب والتراث**، ص156.

أربعة عشر قرناً.

والسؤال الثاني أصغرها للدائرة الضيقة التي يمثلها التيار العلماني عند خاصة المثقفين، تاريخياً إذ لا يتجاوز امتداده قرنين من الزّمان، على اتصالنا بالغرب الحديث.

أما السؤال الثالث فهو عن الواقع المباشر وهو الغائب الحاضر، المفكر فيه، المسكوت عنه بتعبير **محمد أركون**. لا هو بالموروث ولا هو بالوافد، بل هو تراث جديد، نظرية جديدة تهتم بتفسير الواقع، ويولد من رحم التُّراثين السابقين الطويل والقصير/ البعيد والقريب.

ينطلق التنظير في مشروع **حنفي** من قناعة حازمة بأن كل مشاريع النهوض بدءاً من الأطروحات الفكرية إلى التجارب الواقعية، كلها قد آلت إلى طريق مسدودة وآفاق مظلمة، ولم يبق من حل للخروج من المأزق الذي تعيشه الأمة سوى البحث عن مدخل نقدي وإصلاحي جديد مخالف تماماً لما جرى العرف عليه. يبدأ الإصلاح فيه من إعادة تركيب وتصنيف أطروحات الفكر الإسلامي الحديث في مواجهة سؤال التقدم، ثم نقد تلك الأطروحات وتجاوزها.

فإذا كانت النقاط التي وردت في هذا المدخل تشكل الموضوع الرئيسي عند **حنفي- في مشروع التراث والتجديد** فإن القراءة في عمق الأفكار التي تضمنها كتاب مقدمته «**في علم الاستغراب**» قادتنا بدورها إلى طرح التساؤلات التالية:

1- هل تنشئ دراسة الفكر الغربي كموضوع للبحث علماً جديداً؟ مشروع الاستغراب في مقابل مشروع الاستشراق؟

2- ألا يمكن أن نعد البحث في مسألة الهوية العربية الإسلامية لتثبيت موقعها هي غاية تأسيس علم الاستغراب عند **حنفي؟**

3- ما هي الأدوات الفكرية والآليات المنهجية التي يرتكن إليها **حنفي** في إثبات أطروحته. ما المعيار الذي أقام عليه أفول «**الآخر**» وصعود «**الأنا**»، هل تبدل

النموذج تزامناً مع تطور مساره الفكري (قبل الثورة وبعدها) أي في انتقاله من اليسار إلى الاستغراب؟

4 - هل كان الاستشراق علما حتى يوصف الاستغراب بأنه علم؟

5- هل آن الأوان لـ«**الأنا**» الإسلامي؛ حضارة «**نحن**» أن تضاهي «**الآخر**» الغرب حضارة «**هم**» هل صار بإمكان وصف المشروع الثقافي الغربي وجعله موضوعاً لقول علمي أو مادة لنتاج معرفي؟ ماذا يمثل «**الأنا**» و«**الآخر**» في مشروع **علم الاستغراب** عند **حنفي** كيف يتم نسج «**الآخر**» على غرار «**الأنا**» بعد أن تم نسج «**الأنا**» على غرار «**الآخر**» في مشروع **من العقيدة إلى الثورة** هل البحث عن «**الأنا**» كهوية هي غاية **(مقدمة في علم الاستغراب)؟**

كيف يحدد أفهوم الاستغراب - **حنفي**- وهل استطاع أن يحقق الأهداف التي نشأ من أجلها؟

بإيجاز شديد هل آن الأوان لقلب **القضايا**؟ فيمسي الغرب، الموضوع والمرئي والمدروس، وتصبح «**الأنا**» الذات والرائي والدارس، هل تصبح حضارة الـ«**نحن**» في موقع العارف والقابض على ما يتوقع **حسن حنفي** لنا أن نكون في المستقبل يراه قريباً ونراه بعيداً؟

يشكل كتاب «**مقدمة في علم الاستغراب**»* البيان النظري الثاني للجهة

---

* صدر كتاب «**مقدمة في علم الاستغراب**» أواخر سنة **1990** وهو كتاب ضخم تقترب صفحاته من التسعمائة صفحة ويعد مؤلفه أول من أبرز لفظة «**الاستغراب**» على النحو اللافت. يتألف الكتاب من بيان نظري وثلاثة أجزاء. صدر لحد الآن بيانه النظري.

أثار الكتاب بصدوره ضجة واهتماماً واسعين واستقطبت قراءته العديد من الباحثين والمفكرين المهتمين بالعلاقة بين الشرق والغرب. وتشكلت مواقف متباينة أولَتْ النص الحنفي وترجمته العديد من المقالات، كما نوقش الكتاب في عدة ندوات.

ورغم أن الكتاب يتألف من ثمانية فصول وخاتمة إلا أن محوره الأساسي يكمن في الفصل الأول، أما باقي الفصول فهي تطبيق للفكرة الرئيسية **(دراسة الغرب)** أو بالأحرى الوعي الغربي بداية تشكله وكل المدارس والاتجاهات والمذاهب التي عرفها هذا الوعي في تطوره إلى الفكر المعاصر.

الثانية «**الموقف من التراث الغربي**». يهدف البيان عند صاحبه إلى تأسيس «**علم الاستغراب**» تماماً كما هدفت أعمال سابقة إلى تأسيس علوم كثيرة؛ منها: مقدمة **ابن خلدون** لتأسيس «**علم العمران**» وكذا **سيبويه** لتأسيس «**علم النحو**» وألفية **ابن مالك الخليل بن أحمد** لتأسيس «**علم العروض**»(1.) فهذه النماذج على تباين المشكل المعالج فيها انطلقت من بيانات نظرية، وعليه إذا كان البيان النظري الأول: **من العقيدة إلى الثورة**. إعلاناً لميلاد نهضة جديدة بالنسبة إلى «**الأنا**» فإن البيان النظري الثاني **مقدمة في علم الاستغراب** هو إعلان لنهاية نهضة قديمة نشأت وتطورت واكتملت وبدأت في الأفول أي أفول «**الآخر**».

على هذا الأساس يرى **حنفي** أن دراسة «**الآخر**» منذ تكوينه إلى نهايته هو الموقف الذي يجب أن يتخذ في هذه المرحلة، فتحديد الموقف منه – **أي من الآخر**- هو جزء من حركة التاريخ وتطور الحضارة واستمرار لما بدأناه في العصر القديم.

وعليه فإن أحد مبررات التأسيس لهذا العلم تكمن في أن تراث «**الآخر**» يمثل التصدي لنا، إنه «**الآخر**» الذي تأثّرنا به وهو «**الآخر**» الذي قلدناه، وهو «**الآخر**» الذي أخذ منا زمام الريادة وتبوأ المركزية وادعى العالمية. فاحتل المركز وصرنا في الهامش.

تجدر الإشارة إلى أن فكرة التأسيس «**لعلم الاستغراب**» راودت فكر **حسن حنفي** عندما كان طالباً في مقاعد الدراسة يحضر أطروحته لنيل شهادة الدكتوراه عام (1965) في باريس والتي كان عنوانها

Les Méthodes d'exégése. Essai sur la science des fondements de la compréhension. «Ilm USUL all Figh».

وترجمتها «**مناهج التفسير بحث في علم أصول الفقه**».

لكن السعي إلى تجسيدها على أرض الواقع وعلى الشكل الحالي بلورتها مرحلة تاريخية هامة.هي**فترة التسعينيات** التي تعد بامتياز فترة حاسمة في تاريخ

تطور البشرية، وسمة القرن العشرين على رغم غنى أحداثه، أنها «**بيريسترويكا**» **غورباتشيف**، شهد القرن هدم جدار برلين، والعودة النسبية لأوروبا إلى حدودها الطبيعية سياسيًّا، وعقود التنمية الضائعة بامتياز في أميركا اللاتينية، فشل مشاريع التنمية الوطنية وإجهاض الاستقلال الناجز لدول العالم الثالث... مجاعات أفريقيا وفشل الثوار العالميين واختفائهم، هزيمة المعسكر الاشتراكي، ... وتضع الحرب الباردة أوزارها وتعلن أميركا ولادة نظام عالمي جديد، يتجاوز الشرق والغرب، يقرّب المسافات ويقضي على الخصوصيات ويجمع الكل تحت سقف واحد هو سقف العولمة.

إنها لحظة انكشاف العالم موحداً في العولمة، ولعلها اللّحظة الأوضح في التاريخ التي تتجلى فيها معالم «**الأنا**» الإنسانية الكبرى الواحدة الكلية الشاملة بأجزائها مجتمعة في الزمان والمكان، والتكنولوجيا ما بينهما، في التنميط وفي النمذجة، فتبدو الصورة كأن الفرد يشبه ويصبح نفسه والآخر في آن.

في رحم هذه اللّحظة التاريخية العصيبة يتخلق «**علم الاستغراب**» وكما يذهب إلى ذلك **حنفي** يأتي في سياق التصدي لمهمة لإبداع المرجأة، منذ أن تقهقرنا إلى موقع الانفعال بأفكارهم الدخيلة، لا الفعل بأفكارنا الأصيلة، «وكان إصدار هذا البيان الثاني مُلحاً، نظراً لأن فترة النقل الحالية عن الغرب طالت أكثر مما ينبغي، وتأخرت فترة الإبداع. فما زلنا ننقل عن الغرب منذ فجر النهضة الحديثة أي ما يزيد على المائتي عام، ولم يتوقف النقل بعد»[4].

يشير **حنفي**، دوماً إلى ما كنا فيه قديماً، بالقياس إلى ما صرنا عليه حاضراً، إذ يعتبر أن التمثل بالماضي المشرق في حضارتنا، يُلزمنا بالتماشي وراء خطى القدماء عبر الانسياق في ترجمة كانت قد سبقت التأليف والإبداع حتى أنه حصر الترجمة في

([1]) حسن حنفي، **مقدمة في علم الاستغراب**، ص 71.

زمن مُحدَّد، يجب أن لا يطول، لأنه مرحلة تمهيدية للانتقال بعدها إلى مرحلة الفعل والمبادرة، وبالأخص، النظر في صورة «**الآخر**» من منظار «**الأنا**» تماماً كما انتقل فلاسفتنا القدماء من ترجمة التراث الفلسفي والعلمي عند شعوب اليونان، الفرس والهند إلى مرحلة الفعل في بناء الحضارة العربية الإسلامية. ولم يدَّعو في ما نقلوه من علوم أنهم أسسوا علماً إسلاميا في مقابل العلم اليوناني والقول لـ: **حسن حنفي** فلماذا يدّعي هو قصب السبق في تأسيس **علم الاستغراب** إذن؟ وهل كان **الاستشراق** علما حتى يوصف الاستغراب بأنه علم؟

هل تتوفر الشروط الإبستيمية في **علم الاستغراب** الذي يدعو إليه **حنفي** ليصير علماً؟

في الواقع إن الهم الذي يقلق **حنفي** في هذه المقدمة هو التخلص من الأسطورة القائلة بأن الثقافة الغربية ثقافة عالمية، وأنها الحضارة الممثلة للحضارات البشرية جميعاً. ساعياً إلى نقض الاعتقاد والتأكيد في المقابل أن الحضارة الغربية إنما هي «فكر بيئي محض نشأ في ظروف معينة هو تاريخ الغرب وهو نفسه صدى لهذه الظروف»[5]. وإذا كان في موضع آخر يقول كذلك «... وريث خبراتها تراكمت فيه المعارف انتقالاً من الشرق إلى الغرب»[6].

ويأتي اهتمام **حنفي** بالتراث الغربي من حيث أنه يعد جزءاً من حركة التاريخ وتطور الحضارة . إنه كما يرى واجب قومي ووطني يسير بنا إلى الوصول بموقفنا الحضاري إلى درجة متقدمة من التأصيل. هذا في مرتبة أولى، وفي مرتبة ثانية هو تعويض لعجز اتباع السلفية عن تقديم نقد جذري للثقافة الغربية وتحرير الوعي الإسلامي من ربقة العقلية الأوروبية. من هنا وضع **حسن حنفي** نصب عينيه مهمة إنجاز معركته مع الثقافة الغربية، مسترشداً بالمنهج

([5]) المصدر نفسه، ص 36، 37.

([6]) المصدر نفسه، ص 36.

(الفينومينولوجي) كنموذج للتصدي والمواجهة مؤسساً الاستغراب؛ العلم الذي توكل إليه مهمة إنجاز مشروع قهر الغرب ومضاهاة استشراقه.

الاستغراب عنده هو إعادة النظر في جدل «**الأنا**» و«**الآخر**» الذي يتبلور على محك آخر هو الذات والموضوع. حيث تبدو العلاقة بين الطرفين هي علاقة موجب وسالب. فالذات هي ذات عارفة بالنسبة لموضوع نضعه موضع بحث ودراسة. وهي بهذا تكتسب صفة إيجابية بينما تتحول «**الأنا**» الأخرى أو «**الآخر**» إلى موضوع للبحث ومن ثم تكتسب صفة سلبية لكونها موضوع ملاحظة ودراسة.

من هذا المنطلق يتساءل **حنفي** في مقدمته الطويلة عن الحاجة إلى **علم الاستغراب**، الحاجة التي تأخذ. بيان من أجل **الاستغراب** ومن جهة نظره أن الانبهار بتراث الغرب مثل أحد الدوافع لكتابة هذا البيان. خاصة أن هذا التراث ومنذ مدة تزيد عن مائتي عام يحتل حجماً كبيراً في وعينا القومي..

يَنْهمّ **حنفي** في **مقدمة في علم الاستغراب** بطرح هوية «**الآخر**»، الوافد الغربي بعد أن طرح أسئلة الموروث في الجبهة الأولى في مشروع **(التراث والتجديد)** يحيلنا **حنفي** إلى الجبهة الثانية والجبهة الأولى لم تكتمل بعد لأن وضعنا - في رأيه- على المحك. لهذا توجب الانتقال إلى الوافد الغربي الذي بات يشكّل خطراً على تراثنا- إذا لم نسرع في تحجيمه وردّه إلى حدوده الطبيعية على حد زعمه.

الوافد الغربي- لدى- **حنفي** هو المشروع الأوروبي الذي تشكل عبر التاريخ وبمعنى أدق هو الوعي الأوروبي الذي عمل فيه تشريعاً، بدراسة أولاً مصادر هذا الوعي، وثانياً الكيفية التي تكون بها هذا الوعي في التاريخ ومراحل هذا التكوين، وثالثاً بنية هذا الوعي، ورابعاً وأخيراً مصير هذا الوعي أو مستقبل الوعي الأوروبي. بهدف إعادة اكتشافه مرة أخرى وبطريقة جديدة، تستطيع إخضاعه لمسار التاريخ، ورؤيته في مساره هذا سوف تكشف عن تاريخانية: تخرجه من قدسيته

وكهنوته عند اكتشاف حدوده والسيطرة عليها. لهذا سوف تكون هذه المحاولة- لديه- بمثابة مقدمة لتحرر «**الأنا**».

من أجل هذا يستعرض- في هذه المقدمة- ما استجمعه الغرب طيلة قرون، وعبر «**بانوراما**» تاريخية لأكثر المحطات تجذراً في الوعي الأوروبي بدءاً بكشف المصادر المعروفة لهذا الوعي **(المصدر اليوناني الروماني والمصدر اليهودي المسيحي)**، ثم المصادر المجهولة أو المتجاهلة من قِبَل الغرب **(المصدر الشرقي القديم)** المتمثل في حضارات الصين والهند وفارس وما بين النهرين، والبيئة الأوروبية ذاتها والموقع والتاريخ والعادات والديانات والأساطير[7]، منتقلاً بعدها إلى الوقوف عند المراحل التي تخلق فيها الوعي الأوروبي وأسهمت في تكوين عصوره الوسطى. فكانت الفلسفة المدرسية **700**هـ- **1400**م واحدة من روافد التكوين الفكري المتأصل عندهم في حوارات رجال **(الإكليروس)** حول مبادئ الكنيسة وتعاليم المسيحية، خصوصاً بعدما وجد الغرب نفسه أمام تحديات تعدُّد التفسيرات واختلاف التأويلات في الديانة المسيحية الواحدة التي انشطرت وتذرّرت على مذاهب مختلفة بين من يدعو إلى اعتناقها بالعقل ومن يدعو إلى الإيمان فيها بالنقل؟ لا بالعقل، ولعل ارتداد العقل على النقل في الفلسفة المدرسية هو انقلاب أو ثورة للإبداع على التقليد.

لقد بقيت الفلسفة المدرسية ردحاً من الزمن موضع تجاذب وصراع بين دفاع العقل **(الفلاسفة المتنورين)**، وهجوم النقل **(رجال الإكليروس)**. وفي هذا السياق، جاء تعليق **حنفي** على محور من محاور الصراع بين الجدليين واللاهوتيين بقوله: «وهنا يبدو دور الثقافة الوثنية مثل المنطق والآداب في إنقاذ الوعي الأوروبي من عقائدية المصادر مرة ثانية، كما أنقذته أول مرة في عصر آباء الكنيسة، ثم جاء ردّ الفعل من اللاهوتيين على الجدليين دفاعاً عن الإيمان ضد

---

(7) حسن حنفي، **مقدمة في علم الاستغراب**، ص 116.

العقل»[8]. فمن هذا المخاض التاريخي الصعب تكون الوعي الأوروبي، المنتصرة فيه بذور الوثنية على الإيمان، العقل على العقيدة في رأي **حنفي**. وتجاوزاً لتفاصيل كثيرة حول المسألة ذاتها، لا نعلم السياق التاريخي للنص الذي أدرج فيه **حنفي** مشائية الفلسفة العربية الإسلامية التي لعبت دور الوسيط في مرحلة نَقْلها التراث اليوناني إلى الغرب، سوى أنها حافظت على مضمون العقيدة الإسلامية في استعمالها الفلسفة اليونانية كأداة للتعبير عن جوهر إيمانها بالإسلام فالجزم بهذا الأمر في غياب الجدة الدامغة على ما يفترضه **حنفي** من «**تشكُّل كاذب**» في إطار العقيدة الإسلامية، مبرره تحييد الفلاسفة العرب المسلمين عن وثنية قدماء اليونان القابعة في عقل مفكريهم الجدليين واللاهوتيين المحدقين.

فالإشارة إلى كيفية تشكل الفلسفة العربية الإسلامية دون نزع الستار عن ذلك الصراع الذي كان محتدماً بين تأويل **ابن رشد** العقلاني للإسلام بالتفسير العقائدي لرجال الدين، قد تقحم تاريخنا الفكري في أتون صراع، كان حاداً وطويلاً استكمله الغرب من حيث توقف عندنا. لا يدل إلا على رغبة **حنفي** في تجريد تراثنا الفكري من علائق مجريات تشكله التاريخي، ليؤكد صفاوته وسموه عن معمعة التاريخ الفكري للغرب.

إن الثقافة الأوروبية في نظر **حسن حنفي** قد تجاوزت السقف واخترقت – اليوم- حدود الطبيعة بفضل ما تملكه من تكنولوجيا وأدوات فكرية لتنفذ بهذه الترسانة الضخمة إلى ثقافة الدول اللاأوروبية التي أصبحت على هامش المركز **(الأطراف)** في الوقت الذي تحتل فيها أوروبا المركز والعلاقة بين المركز والأطراف هي علاقة تظل أحادية الطرف. علاقة السيد بالعبد إبداع دائم من الأول

([8]) المصدر نفسه، ص 194.

واستهلاك مستمر من الثاني[9]..

من أجل هذا نجد **حنفي** في **مقدمة في علم الاستغراب** يطرح مهام هذا العلم في النقاط التالية:

1_القضاء على المركزية الأوروبية ورد ثقافة الغرب إلى حدوده الطبيعية بعد أن انتشر خارج حدوده إبان عنفوانه الاستعماري.

2_ إنهاء أسطورة كون الغرب ممثلاً للإنسانية جمعاء وأوروبا مركز الثقل فيه، تاريخ العالم هو تاريخ الغرب، وتاريخ الإنسانية هو تاريخ الغرب، وتاريخ الفلسفة هو تاريخ الفلسفة الغربية وحتى الحروب الأوروبية هي حروب عالمية. فكل دعوة إلى العقل هي دعوة ديكارتية بالضرورة أو كنطية وكل دعوة إلى الحرية هي دعوة ليبرالية غربية وكل نضال من أجل العدالة الاجتماعية ماركسية، وكل اتجاه نحو العلم هو وضعية وهذا في رأي **حنفي** ولد عند العربي شعوراً بالنقص والدونية أمام الغرب لغة وثقافة وعلماً.

3_إعادة التوازن للثقافة الإنسانية بدل الكفة الراجحة للوعي الأوروبي[10].

إن بلوغ هذه المهام في رأي **حنفي** مشروط بالغوص في ثقافة «**الآخر**» وجعل الفلسفة الغربية ميداناً للنقد. بهذا فقط نضع اللَّبنات الأساسية لعلم **الاستغراب**.

بعد العرض المستفيض «**البانورامي**» لتاريخ الوعي الأوروبي يتوج الجهد المبذول والضخم بخاتمة يبرر **حنفي** الانتقادات التي يمكن أن توجّه إليه، محاولاً الردّ عليها في ما أسماه بمحاولة «**النقد الذاتي**»[11]، ملخصاً ومبرّراً في الآن ذاته تلك الانتقادات التي يلخصها:

([9]) حسن حنفي، **موقفنا الحضاري**، مركز دراسات الوحدة العربية. ص 31.

([10]) حسن حنفي، **مقدمة في علم الاستغراب**، ص 36-40.

([11]) المصدر نفسه، ص 437.

قراءة تحليلية نقدية في مشروع مقدمة في علم الاستغراب. (للمفكر حسن حنفي)

أولاً: في التذبذب المستمر بين التحليل والمادة العلمية.

ثانياً: في صعوبة التطبيق والاختيار.

ثالثاً: في التذبذب بين العصور والتأريخ بالقرون.

رابعاً: في اختلاف أساليب الفصول لدرجة عدم التجانس.

خامساً: في تحليل الوعي الحضاري للأنا أو للآخر دون أساسه التاريخي والاجتماعي والسياسي والاقتصادي الذي تكون فيه[12].

يقول **حنفي**: «... وبعد أن انتهيت من صياغتها باتت عيوبها. [مقدمة في علم الاستغراب] فالعيوب لا تظهر إلا في النهاية وأوجه النقص لا تنكشف إلا بعد الاكتمال»[13].

بإيجاز شديد كانت هذه هي: قراءة **حسن حنفي** لتكوين الوعي الأوروبي من البداية إلى النهاية من النشأة إلى الأفول. من «**الأنا**» أفكر **ديكارت** إلى «**الأنا**» موجود **هوسرل.**

فهل بلغ **حنفي** المراد وحقق الهدف الذي من أجله أنشأ هذه المقدمة؟

بأي منحى يتمثل الجديد فيها قياساً على الدراسات التي سوّغت الهدف نفسه؟

كيف يرد **حنفي** على الانتقادات التي لخّصها في خاتمة هذه المقدمة

هل ما قام به في «**مقدمة في علم الاستغراب**» هو بالفعل نقد للفلسفة الغربية بكل ما ينطوي عليه الأفهوم من دلالة أم هو عرض مستفيض وتوصيف للمراحل التاريخية للفكر الأوروبي.

ما الجديد الذي جاءت به هذه المحاولة وتفرّدت عن غيرها من المحاولات

([12]) المصدر نفسه، ص 778- 784.

([13]) المصدر نفسه، ص 777.

السابقة، والتي هي الأخرى انهمت بدراسة الوعي الأوروبي وتاريخه لكنها لم تدع قصب السبق في تأسيس العلم كما هو الحال عند **حنفي** الذي يعتبر نفسه صاحب **المحاولة الكاملة.** فما الجديد الذي تكشف عنه قراءة **حنفي لـ(تراث الغرب)؟**

عملياً لو صح اعتبار ما وسمه **حنفي** بالاستغراب لكان كل من كتب عن الفكر الغربي مستغرباً إذ لم يكن من أبناء الغرب! والأهم من هذا كيف سيسمي **حنفي** الكتابات العربية التي درست وأرخت للفلسفة الهندية أو للخبرة اليابانية أو للفكر الصيني التقليدي أو الثوري هل يسميها استشراقاً أم استغراباً؟

كل هذا يقودنا إلى أن الاستغراب الذي يزعم أنه مؤسسه ما هو إلا الاستشراق معكوساً.

ولعل القضية الرئيسة في **مقدمة علم الاستغراب** والمسكوت عنها تتمحور حول مشكلة هويّة «**الأنا**» المهدّدة إن لم تتحقّق قبل أي شيء بما يجب قبوله أو رفضه من «**الآخر**»؟.

فهل تصبح الهوية هي غاية المشروع كله؟

إن المتتبع للجهد الفكري الذي بذله **حنفي** في **مقدمة في علم الاستغراب** يدون أن الجهد استنفذ في عرض تفاصيل الفكر الغربي، عبر محطات تاريخية هامة في تمفصلاتها. بهدف تشكيل موقف من الغرب وتراثه الزاحف. بعد أن تمّ تأسيس الموقف من (التراث القديم) عبر عرض محطات هامة كذلك في مسار «**الأنا**».

صحيح أن **علم الاستغراب** عند - صاحب مشروع هذه المقدمة- هو علم غرضه تحويل الغرب إلى موضوع للدرس بعد أن كان ذاتاً دارسة وقلب الأدوار فتصبح الـ«**نحن**» مصدر العلم والمعرفة بعد أن كانت موضوعاً للدرس والفحص. لكن ما يستوجب طرحه هو التساؤل عن الكيفية التي يتم بها تبديل الأدوار وقلب

الموازين. هل باستطاعة الأكثر تخلفاً تحطيم الأكثر تقدّماً والحلول محله؟ هل تملك حضارة «**الأنا**» وهي على المحك، في عصر ظهور «**الأنا**» **المعولمة** الأدوات اللازمة لإعادة النهوض وصنع حضارة تفوق حضارة الغرب؟

هل البحث على المستوى النظري- لأفول الغرب ينهي بالفعل تبوأه للمركز ويعيد لحضارة الأطراف مجدها المفتقد تاريخياً؟ من أين انطلق **حنفي** وإلى أين وصل؟

إذا كان **حنفي** يؤسس لموقفه من **التراث الغربي** استناداً إلى ماضينا، فنقول إن أجدادنا نهضوا وأسسوا حضارتهم على قاعدة الانفتاح على «**الآخر**» وكانوا يملكون مشروعاً حضارياً، وانتهجوا طريقا مكّنهم من احتلال المركز تاريخياً، بعكس وضعنا الراهن، فعالمنا العربي الإسلامي يشكل نموذجاً في التخلف بكل امتياز والذي تعود بدايته التاريخية مع سيطرة خلفاء ساهموا في القضاء على سلطة العقل والتوجه العقلاني المتمثل بحركة الاعتزال التي استفاد منها المأمون إذ كان له الجهد الكبير في مجال إطلاق وتسريع عجلة التطور النهضوي والحضاري لأمتنا.

إن المتأمل في «**علم الاستغراب**» الحنفي يستنبط طغيان المنهج الفينومينولوجي **(النزعة الشعورية)** الدافقة وما تجر إليه من تذبذب تتعارض وسمات العلم في أفهومه العام. إذ يعترف **حنفي** نفسه بهذا التذبذب في خاتمة الكتاب في محور سماه **(محاولة في النقد الذاتي)** وهذا نصه: «ويمكن إجمال أوجه القصور في هذه المقدمة في علم الاستغراب في عدة نقاط أساسية وعلى النحو الآتي:

1- التذبذب المستمر بين التحليل والمادة العلمية، بين العلم الجديد والمعلومات القديمة. وقد نشأ ذلك من الرغبة في الكتابة على مستويين ولجمهورين أو قارئين: الأول مستوى التخصص الدقيق... والثاني مستوى

المعلومات العامة...»[14].

يظهر النص الصعوبة الابستيمية (Episteme) في قبول وصف «**العلم**» على ما يقدمه الكتاب، لذا في رأينا تنطبق عليه تسمية اتجاه أكثر من تسمية «**علم**».

هذا فيما يخص أفهوم العلم أما إذا دققنا في النظر في مصطلح أو كلمة «**استغراب**» وهي اشتقاق خاص من جذر **غرب** في اللّغة، وإذا استعملت فهي تحمل معنى الاندهاش، أو الإنكار، فيقال «**استغرب الشيء**» أي اندهش منه أو أنكره... لكنها في المعنى الاصطلاحي فهي تقابل «**الاستشراق**» وتستقي معناها منه بدلالة المقابلة والمخالفة، مما يؤكد أن **حنفي** بقي أسير النظرة الغربية وهو يصوغ علمه الجديد المفترض أن يكون مضاهياً له لا متماهياً معه، فالغرب قام بالاستشراق و**حنفي** يقوم برد فعل يقابله؛ فيكون الغرب فاعلاً في المرتين.

فضلاً عن هذا، فقد مضى في عصرنا ما كان يسمى بالكتابة الاستشراقية، فكيف لـ: **حنفي** بـ: **علم استغراب**.

والاستشراق ليس مجرد كتابة عن التراث الديني للشرق العربي الإسلامي، من وجهة نظر غربية حتى يكون **الاستغراب** استفاضة عن مراحل تشكل الوعي الأوروبي **(من نشأته إلى أفوله)**. فـ**(الاستشراق)** مقارنة بـ**(الاستغراب)** كان يتضمن أموراً عديدة منها كشف النصوص وتحقيقها في مختلف المجالات الفلسفية والأدبية والفنية والتاريخية والسياسية، كما كان يتضمن دراسات لها ودراسات مقارنة بينها وبين نصوص غربية في هذه المجالات المختلفة، وتحديد التأثير المتبادل بينها، فضلاً عن التأويل والتفسير الذي كان يعبر – بغير شك- عن أيديولوجية المستشرقين الخاصة، كما يعبر أحياناً عن المصالح والسياسات الخاصة لدولهم.

لقد انتهت مرحلة الاستشراق وبدأت مرحلة جديدة من الدراسات العلمية والتجريبية ذات التخصصات الدقيقة وفي الوقت الذي تنتهي فيه مرحلة

([14]) حسن حنفي، **مقدمة في علم الاستغراب** ص 778.

الاستشراق يطل علينا **حنفي** بما يسميه **الاستغراب** بل **علم الاستغراب** ولا نجانب الحق إذا قلنا أن ما يدعو إليه **حنفي** لا نجد فيه علماً بالمعنى المنهجي الدقيق أو إطاراً نظريًّا محكما ومنطقاً حضاريًّا دقيقاً كما يذهب إلى ذلك[15]. فليس ثمة تأسيس لقواعد أو لمنهج في هذا الاستغراب.

وفكرة التأسيس في مقدمته – في الواقع- ليس إلا حجب الفكر لأسسه واستبعاد القول لشروطه أو بالأحرى تستر العلم على سلطته – وفي الوقت الذي يقول إنه يؤسِّس علماً جديداً نجده يقوم بقراءة* للفلسفة الأوروبية عبر تاريخها وهي عبارة عن استثمار لأفاهيم متداولة في مجال جديد نخصّها بالذكر أفاهيم «**الأنا**» و«**الآخر**» والذات والوعي... وربما تهيأ لـ **حنفي** أنه يصف المشروع الغربي في حين أن ما يقوم به من استفاضة في العرض هي وصف صورة الغرب كما تكونت في ذهنه أي وفق **النموذج** الذي يفكر ضمن إطاره ويعده المرشد في التنظير لمسائل عديدة.

إن العمل الذي يقوم به في **علم الاستغراب** هو مجرد تأويل للعلاقة بين «**الأنا**» و«**الآخر**» هي ثمرة للعقل والفهم والخيال فضلاً عن الحساسية بما تعنيه من التعاطف أو النفور. وهو إن كان يدعي من وراء **علم الاستغراب** التحرر من مركزية الغرب، فإنه كما يقول **علي حرب** «يَحْمِل الغرب على إرادته ومعناه. متستراً بذلك على مركزيته. فمنطوق خطابه أنه يريد تحرراً، ولكن ما يسكت عنه الخطاب أنه يريد سيطرة. ولهذا فالمسألة ليست مسألة تأسيس أو تحرير بقدر ما هي مسألة توظيف أو تأويل أو احتواء... ولكن **حنفي** المستغرب يتغافل عن ذلك بقدر ما يقيم في هويته أو بتمركزه على ذاته»[16].

([15]) حسن حنفي، **مقدمة في علم الاستغراب**، ص 21.

* سيأتي التفصيل في هذه القراءة في مبحث خاص.

([16]) علي حرب، **النص والحقيقة**، نقد النص، ص 50.

إضافة إلى كل هذا فما يعده **حنفي** علماً جديداً في الأصل هو قديم لأن علاقة العرب بالغرب ليست حديثة والاهتمام بعلم الاستغراب ليس مستحدث فقد كان حاضراً منذ نشأة «**الأنا**» الحضاري في التراث الإسلامي عبر أربعة عشر قرناً أو يزيد وإذا كان «**الآخر**» بالنسبة لنا اليوم هو الغرب المتمثل في أوروبا وحالياً أمريكا فإنه في الماضي البعيد كان متمثلاً في اليونان الذي استطاع «**الأنا**» العربي الإسلامي فهمه واحتواءه بعد جهد عظيم من الترجمة والشرح والتلخيص ومن ثم كانت إبداعات الحضارة العربية الإسلامية نتيجة لهذا التفاعل بين الداخل والخارج بين الموروث والوافد بين علوم العرب وعلوم العجم وبلغة العصر بين «**الأنا**» و«**الآخر**»[17].

ومع الحملة الصليبية ظهرت مرحلة جديدة على ما يذكر **حسن حنفي من علم الاستغراب** إذ كانت الحضارة الإسلامية في أوجها يقرأ الصليبيون أنفسهم في مرآتها التخلف في مرآة التقدم، التعصب في مرآة التسامح والتوحش في مرآة التحضر والتمدن[18].

والحضارة العربية الإسلامية في عصرنا الذهبي كانت معلماً و«الآخر» في عصره الوسيط مُتعلماً.

إذن الدعوة إلى «**الاستغراب**» قديمة، عندما كانت الحضارة الإسلامية ذاتاً دارساً، استطاعت أن تحول الحضارة اليونانية إلى موضوع دراسة فظهر الجدل بين «**الأنا**» و«**الآخر**» جدلاً صحيحاً، «**الأنا**» ذات دارسة و«**الآخر**» موضوع مدروس، أما اليوم فالعلاقة بين «**الأنا**» و«**الآخر**» يغمرها التوتر والخوف والقلق هذا الوضع الراهن لحضارة «**الأنا**» بلا شك يجعل الاستغراب على المحك ويصعب

([17]) الطاهر لبيب، **الآخر في الثقافة العربية**، مقال ضمن: صورة الآخر العربي ناظرا ومنظوراً إليه، ط1 (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1999)، ص 58.

([18]) المرجع نفسه، ص 58.

إنجاحه كما نجح الاتجاه المقابل له الاستشراق.

فالبحث في «**الاستغراب**» لا يزال محاولة محض فردية، فلم تتأسس لدينا، بعد **الطهطاوي** مدرسة لهذا الاتجاه، في الوقت الذي شكل **الاستشراق** مؤسسة غربية، ترعاها الحكومات وتخصص لها الأقسام الأكاديمية في جامعات الغرب وتمد بالتمويل اللازم. وزيادة على هذا أن الغرب كان يدرس الشرق من موضع القوة والتفوق، وقد سهل هذا الوضع عملية الحصول على المادة البحثية والمخطوطات. فكيف يمكن للاستغراب أن يحقق هدفه وحضارتنا اليوم في موضع الضعف والانحطاط، وهل سيسمح لنا الغرب أن نقتبس المعلومات التي نريدها كمادة لدراسة الغرب؟ فالغرب لا يسمح لنا اليوم إلا بالمعلومات التي يريد هو أن نعلمها عنه. بل أبعد **من هذا فنحن في كثير من الأحيان ما نعتبر الغرب مرجعية في اقتباس معلوماتنا عن ذاتنا. وهنا المأساة!**

صعوبة أخرى تعترض سبيل البحث في **علم الاستغراب** هو **الانبهار بالغرب** وهي الظاهرة الغالبة على مجتمعاتنا المتخلفة اليوم، والفكرة التي تسكن فكر مفكرينا وباحثينا. فالمستشرقون درسوا الحضارة الإسلامية والتراث العربي وهما في حالة سكون وجمود، أما الحضارة الغربية فهي لا تزال حية متطورة وهنا تنشأ إمكانية الانبهار واحتمالية أن يغرق الباحث الاستغرابي في تيار الحضارة الغربية المتدفق ولا يستطيع الوقوف على الثابت والمتحول فيها.

إن ما يثير التساؤل في تحليل **حنفي** هي بساطة الوسيلة التي تقلب بها الأدوار أو تعكسها فما علينا إلا أن نحول الفكر الغربي إلى «**موضوع للبحث**» فنحقق الهدف أي نستلم شعلة الحضارة، ونتولى زمام أمورنا، بل ونقود العالم كله. وخاصة بعد أن أعلن بعض مفكري الغرب سقوطه وأفوله.

فهلاّ إذا جعلنا الفكر الصهيوني أو الأمريكي أو أي فكر غربي آخر موضوعاً

لبحث «**الأنا**» هل تصير موازين القوى لصالحنا؟

في رأينا أن مواجهة «**الآخر**» على المستوى الحضاري ليس قراراً يتخذ بإملاء ما يجب القيام به قبل توفير مناخات حوارية بها تتأمن شروط حصانة فعلية، عبر تركيز الجهود لعلاج داخلي- ذاتي، يسبق التطلع لفتح جبهة خارجية حساسة، في وقت لم تحدد ولم تحسم فيه بعد، لا هوية حضارتنا القومية، ولا الموقف من قضايا، هي من صلب اهتمامات العصر **(ماهية الدولة، المجتمع المدني، الديمقراطية الفردانية القانون... إلخ)** فإذا لم ينجز هذا العمل كما يقول **محمد أركون:** «فسيظل المسلمون يستهلكون المنتجات الثقافية المستوردة كما هو عليه حالهم الآن فسوف يظلون يعبرون عن غضبهم وإحساسهم بالسخط والمرارة تجاه عالم جائر لا يعبأ بهم»[19].

وقفة تأملية في قراءة **حنفي** لـ: **تراث الغرب** تجعل الدارس يحكم عليها أنها قراءة يغلب عليها الطابع الديني، أي قراءة دينية لأغلب توجهات الوعي الأوروبي. والأمثلة على هذا كثيرة فـ: **ديكارت** عند **حنفي** ينتسب إلى العصور الوسطى أكثر منه إلى العصور الحديثة. وكذلك **كنط** فكلاهما جعل العقل مبرراً للإيمان التقليدي. و**هيجل** - عنده - كان «مفكراً دينياً في البداية وكما تدل على ذلك أعمال الشباب، ثم تحول من الدين إلى المثالية من الوحي إلى العقل في أكثر محاولة عرفها تاريخ الفلسفة الغربية لتعقيل الدين وتنظير الوحي كما حدث ذلك عند المعتزلة والحكماء في تراثنا الإسلامي القديم»[20].

أمر آخر يستوقفنا في هذه المقدمة وهي العناوين التي رتبت بها فصول الكتاب، إذ تخلق في شعور الدارس دهشة في كيف تمنهجت الفلسفة الغربية، عبر خطٍّ تصاعدي وصلت ذروته إلى عصر تنوري، أعقبه انحدار إلى ما ينذر بنهاية

([19]) محمد أركون، **الإسلام أوروبا الغرب**، ترجمة هاشم صالح، (بيروت: دار الساقي، 1995) ص 87.

([20]) المصدر نفسه، ص 293.

الوعي الأوروبي، هكذا على النحو الآتي رتب تكوينها:

المصادر/ البداية/ الذروة/ نهاية البداية/ بداية النهاية/ بنية الوعي الأوروبي/ مصير الوعي الأوروبي.

إن هذا التبويب، قد يسعفنا حتماً في فهم معيارية تقصِّيه الواسع والمستفيض، عما يسوّغ قناعته بهذه التراتبية التي قررها سلفاً- قبل أن يشرع في البحث عما آلت إليه فلسفة الغرب بتاريخها المعقّد المعمق- المتعدد والمختلف، المتكاثر والمتذرر على امتداد تاريخ فيه من الفلاسفة، ما يصعّب علينا تحقيب مواقفهم وآرائهم غير المتجانسة، في عناوين متجانسة، وذلك لأن كل فيلسوف يتربع فوق ما يبتدعه من فرادة موقف- تحليل ومنهج، رغم ما يعتري الناظر من شبهة التداخل والتقليد بين هذه الفلسفة وتلك، إلا أن التداخل والتشابك الفكري ذاك لا يسمح لنا مهما كانت درجته ومستواه، بإدراج فرادة كل منهما تحت مصنّفات صارمة، بمثل ما تحدد في خانات **حنفي** التاريخية.

كما أن إيقاف تطور المعرفة الأوروبية عند مفصل ميتافزيقا «**الله- العقل**» يدلنا على ما يستجديه **حنفي** من تطابق يريده بين إيمانه الديني ووعيهم التاريخي «**المتعقلن**» فبانكسار هذا التوازي المعمول به في ديباجة معادلته المضمرة في ما لم يقله علناً، بعدما اجتازت الثقافة الغربية، بحسب فوكو: «عتبة الحداثة عندما أصبح تناهي ومحدودية الإنسان محوراً جديداً وأساسياً للتفكير، هذا التناهي وبعدما كان في الإبستيمي السابق يحيل إلى المتناهي أو الله أصبح الآن لا يحيل إلا إلى نفسه»[21]. وبعدما تخطّى الوعي الأوروبي ذاته بذاته المهروسة بهمّ السعي وراء ما تمليه عليهم حركة نقدهم التاريخي غير الثابت في محلة ولا عند قول نهائي، وجد نفسه أمام فسيفساء لوحة «**تاريخ**» غير مكتملة، لا يرسمها ولا

([21]) نقلاً عن عبد الرزاق الدّواي، **موت الإنسان**، (بيروت: دار الطليعة، 1992)، ص 164.

يلوّنها المؤجل إلى ما لا يتحدده معيار قيمة، هي في الغرب من صنع وعينا المتناهي في زمان ومكان غير متناهيين.

كما يجب أن لا يفهم القارئ المتتبع «**البانوراما**» الفلسفية للقرن العشرين بذهنية **حنفي** إياها التي عنونت فصلها الخامس **(تكوين الوعي الأوروبي- نهاية البداية)** كما لو أن نقدهم لفلسفتهم هو تقهقر حضاري، ولا يصح اعتبار ما قاموا به من تعرية لأوهامهم بحقيقة تمثلت بمعارف مرحلة تاريخية، تراجعاً فكرياً نحو بدائية المنطلقات في الوعي الأوروبي، إذ يجب أن ننظر إلى هذه التحولات الفكرية في الغرب من زاوية أخرى لنرى الوعي الأوروبي يتجدد بخلاصة تجاربه التاريخية، التي انتهت إلى الاعتقاد بضرورة التخلص من المشاريع الكلية التي كانت محكومة بهمّ البحث عن الحقيقة المطلقة في ما وراء الإنسان والطبيعة، ومن ثم في عقل الإنسان وفي ظواهر الطبيعة.

لذا نرى أن الحلقة المفقودة عندنا، تتمثّل في طريقة تمثّلنا المعارف الدخيلة على وعينا المتمسك بنمط من التفكّر لا يجعل من هذه المعارف سوى حجّة، إما لتوكيد وعينا «اللاتاريخي» وإما لدحض وعيهم «**التاريخي**»، علماً أننا بأمس الحاجة إلى ما يزيل صدأ التراث «اللاتاريخي» عن آلية تفكرنا بمعارفنا أولاً. حتى نستطيع الانتفاع من معارف «**الآخر**».

كما يجب أن لا يفهم القارئ المتتبع «**البانوراما**» الفلسفية للقرن العشرين بذهنية **حنفي** إياها التي عنونت فصلها الخامس **(تكوين الوعي الأوروبي- نهاية البداية)** كما لو أن نقدهم لفلسفتهم هو تقهقر حضاري، ولا يصح اعتبار ما قاموا به من تعرية لأوهامهم بحقيقة تمثلت بمعارف مرحلة تاريخية، تراجعاً فكرياً نحو بدائية المنطلقات في الوعي الأوروبي، إذ يجب أن ننظر إلى هذه التحولات الفكرية في الغرب من زاوية أخرى لنرى الوعي الأوروبي يتجدد بخلاصة تجاربه التاريخية، التي انتهت إلى الاعتقاد بضرورة التخلص من المشاريع الكلية التي كانت محكومة

بهمّ البحث عن الحقيقة المطلقة في ما وراء الإنسان والطبيعة، ومن ثم في عقل الإنسان وفي ظواهر الطبيعة.

من هذه الزاوية يجب النظر إلى الأزمة الراهنة في الغرب لا من حيث هي مأزق للفكر الأوروبي بل هي- النظرة- من النوع الذي يصاحب كل تحول نوعي في مجتمعات كان يسودها وعي انقلب رأساً على عقب، بعدما تمّ إن الحرب العالمية الثانية التي اجتاحت أوروبا كانت مظهراً من مظاهر أزمة التبدل والتحول الحضاري في الغرب وإيذاناً ربما بانتهاء **النموذج/ البارادیغم** السائد وربما مؤشراً لتشكل نموذج جديد/ بديل ما زلنا نعيش مخاض تشكله لم تتضح معالمه بعد، فلا هو في ما كان، ولا هو في ما هو قائم، إنما في ما ستصيره التجاذبات والصراعات السريعة في مستقبل نظام العولمة المتمأزق بنتيجة هذا الانقسام الحاد بين الشمال والجنوب.

استناداً إلى هذه القراءة النقدية لمضمون **مقدمة في علم الاستغراب** في عرض مسار الآخر وقراءة **حنفي** لتراث الغرب وعلى ضوء المستجدات الراهنة التي آل إليها الفكر الغربي يمكن القول إن الخطأ الذي نال من علم الاستغراب وحدوده هو- في رأينا- يكمن في الخلط بين مرحلتين هامتين، مرحلة انتهاء الحداثة في الغرب ومرحلة انتهاء دورة الحضارة الأوروبية.

انطلاقاً من الواقع وبالعودة إلى **مقدمة في علم الاستغراب** نقول إن المشكلة الأساسية المنهجية في دعوة **حسن حنفي** بل في مشروعه الحضاري كله هي اقتصاره على قراءة للسياق الموضوعي والتاريخي في جوانبه السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية السائدة في كل مرحلة من المراحل التي ينشأ منها وفيها الوعي، ولهذا افتقدت قراءته للوعي الحضاري الإسلامي والغربي العمق الموضوعي. على أن المشكلة الأساسية الأيديولوجية التي وسمت هذه القراءة وقوعه في مأزق

عدم التمييز بين الجانب الحضاري في الغرب والجانب الاستعماري، فضلاً عما يقيمه من ثنائية ضدية استبعادية شبه مطلقة بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية في عصرنا الراهن.

قد تشكل الأزمة التي تمر بها حضارة ما، دافعاً جديداً لتلك الحضارة، كما حدث في الفلسفة المعاصرة بظهور الاتجاهات الفكرية الجديدة التي استطاعت أن تتحرر وتتجاوز الأنساق التقيلدية واخترقت النموذج الذي قامت عليه الفلسفة القديمة والحديثة، لتقف عند قراءة النص قراءة جديدة بتفكيكه وإعادة بناءه. لذلك ليس من الضروري أن تكون هذه الأزمة إشارة إلى بداية النهاية، أو دليلاً على أن نهضة الشرق (الكوجيتو الشرقي) قد بدأت فيما أن الغرب بدأ انحطاطه، فقضية انحطاط الغرب ليس بالمسألة الجديدة فقد سبق أن أسالت حبر العديد من مفكري وفلاسفة الغرب؛ **شبنجلر، توينبي، هوسرل**... رغم ذلك لا نجد سوى المزيد من النفوذ والتوسع للغرب. وما يجري على الساحة العالمية حالياً يؤكد نفوذ الغرب وسيطرته تترجمه خطوات التوحد لدول الغرب (**الاتحاد الأوروبي**) وسط تراجع بلغ السقف وتموضع بامتياز لقوى التحرّر الوطني والتشتت والانقسام في الرؤى والمواقف حول قضايا شائكة ومصيرية في قلب الأمة العربية (القضية الفلسطينية، العراق، والاجتياح الأمريكي للعراق، اشتعال فتيل الفتنة في لبنان تحت شعار الطائفية ومسألة الصراع حول الهوية في مناطق عربية إسلامية أخرى، دول المغرب العربي تحديد.

أمام هذا المشهد المأساوي لواقع الحال كيف يمكن أن ينهض الكوجيتو الشرقي؟

إن فشل المشاريع النهضوية– بدءاً من الجيل الأول إلى جيل الحركة التراثية الجديدة- يعود في رأينا- إلى معالجتها الخطأ بالخطأ المضاد وهذا ما وقع فيه **حنفي** عندما حاول أن يدرس الغرب.فهو في «**مقدمة في علم الاستغراب**»

قراءة تحليلية نقدية في مشروع مقدمة في علم الاستغراب. (للمفكر حسن حنفي)

يتعامل مع الحضارة الأوروبية، «**الآخر**» الغربي ككتلة مُصْمَتَةٌ، ترفض برد فعل عكسي للتمركز الغربي على الذات بتمركز إسلامي على«**الأنا**». وعن طريق أدلجة كل شيء ينكر عالماً مشتركاً أو أهدافاً إنسانية عامة، جعلت «**الأنا**» يساهم بتراثه في نهضة «**الآخر**»، وجعلت «**الآخر**» يحقق منجزات عملية هي بعض أحلام «**الأنا**» وتطلّعاته واحتياجاته.

صحيح أن المتأمل في قول الاستغراب يلاحظ أن **حنفي** دخل إلى الفلسفة الغربية من نقطة أزمتها ليبرر مشروعه الاستغرابي، الذي ربما كان يعتقد أنه سينسى الاستشراق لا سيما في اعتقاده دائماً أن الوقت مناسب لمثل هذا المشروع. لكن المتتبع لجولة **حنفي** الفكرية في أعماق الفكر الأوروبي سرعان ما يستنتج أن **حنفي** لم يستعمل لغة النقد في تحليل مادة الوعي الأوروبي وصولاً إلى تفكيك بنيته. فغرق في السرد والعرض والتوصيف بدل النقد. وهذا يبعد صفة العلم كلياً عن هذه المقدمة.

ختاماً لهذا النقد نقول:

1- إن **حنفي** مهما حاول أن ينجو من تأثير «**الآخر**» على «**الأنا**» فإنه لن يستطيع أن ينجو من شباكه فبصمات هذا «**الآخر**» ماثلة في المنهجية المتبعة من قِبَل مفكرنا، فقد وقع في مأزق نقل المنهجيات الغربية إلى الفكر الفلسفي العربي المعاصر رغم رفضه «**للآخر**» على «**الأنا**» فالانغلاق على الذات هو الآخر لا يقل عن الانفتاح على «**الآخر**».

2- لعل قناعة **حنفي** بعلم استغرابه، أملت عليه (القضاء على أسطورة الثقافة العالمية)، أو العولمة، بالمعنى المعاصر للكلمة، مع أن الكلام على نهاية الثقافة العالمية في عصر وثورة المعلوماتية والتكنولوجيا، هو تنبؤ يدحضه تسارع الأحداث، وانشباك مصالح البشر واتصالهم وتواصلهم الأقوى من دعوة **حنفي**

للعودة إلى حنين الماضي، يريد أن يقضي به على أسطورة الثقافة العالمية.

3_إن الردّ على الآخر من موقع الدفاع، قد يلهينا عن موجبات التحصيل الجاد من «**الآخر**» المتقدّم إلى ما يجعل من الانفعال بعلومه ومعارفه، وعلى ما فيها من سلبيات، مطية لارتقاء «**الأنا**» على مستوى أفضل؛ ولعلّ الوجه الآخر المقصي من تراث «**الأنا**» خير معين، لا على نبذ معارف «**الآخر**»، بل على الاغتراف منه دون تردد، ولا خوف على خصوصية هويتنا الحضارية. فالتمثل بإبداع «**الآخر**»، قد يساعدنا على نفض الغبار عمّا طمرته تبجيلاتنا لتراث «**الأنا**» هذه المبدعة إلى أن تخلت عن ذات المبدأ التفاعلي في صيرورة حضارة «**الآخر**»، إلى أن تنكّرت لذات العقل النقدي الذي كان مقصياً عندهم والحاضر كان عندنا بالأمس، والحاضر عندهم والمقصي عندنا اليوم. بهذا يعتبر **حنفي** أن «كل موقف في فكرنا الإصلاحي المعاصر يدعو إلى نبذ التقليد يكون موقفاً سليماً قائماً على ضرورة الإبداع العصري وعلى حكم شرعي قديم، بأن إيمان المقلد لا يجوز، وبأن التقليد ليس مصدراً من مصادر العلم»[22].

لكن رغم صحة هذا الكلام، من حيث المبدأ، إلا أنه يبقى في إطار الوعظ الدعوي، ولم يوغل إلى عمق القضية، فبقي على التخوم.

4 _ لم يلتزم **حنفي** بما قاله في دراسته للغرب من منظور «**الأنا**». فهو من ناحية نجده يفرق بين «**علم الاستغراب**» من حيث كونه مادة محلية غير مستمدة من نقد الغرب لذاته ومن جهة أخرى نجده يقول بصريح العبارة: «ولا يعني ربط الحضارة الأوروبية ببيئتها تطبيق مذهب وضعي أو منهج اجتماعي بل تقريراً لواقع من كتابات المفكرين أنفسهم واعترافاتهم»[23]. إذا **حنفي** هو الآخر يقرأ الآخر أو الثقافة الأوروبية من خلال ما تقوله هذه الأخيرة عن نفسها، يعني أنه يقرأ

([22]) حسن حنفي، **مقدمة في علم الاستغراب**، ص 83.

([23]) علي حرب، **النص والحقيقة، نقد النص**، ص 46.

«**الآخر**» من منظور «**الآخر**» ذاته لا من منظور «**الأنا**». وهذا يعني أن **حنفي** ما زال خاضعاً لهذه الحضارة، يدرسها من أسفل لا من أعلى، وفي هذه الحالة لا تعود القراءة الحنفية للوعي الأوروبي تحديداً لموقف «**الأنا**» بل هي كباقي دراسات المفكرين الغربيين وموقفهم من الغرب، بعبارة أدق هي قراءة تُدَعِّم الموقف الغربي من الغرب.

من هذا المنظور نحكم على القراءة بأنها أقرب إلى الخيال، منها إلى الواقع والموقف من هذا التراث موقف غير مؤسس بالمعنى العلمي للكلمة بل موقف يغلب عليه الطابع الذاتي وعاطفة الانتقام من الغرب ليس غير ونصه هذا أكبر شاهد على قولنا:«اقتضى قصر العمر أن أخرج الثعبان أولاً تحت قميصي ثم بعد ذلك أصفه مدققاً محققاً»[24].

فالثعبان- لو كان من اللائق أن نصف التراث الغربي عامة بأنه ثعبان- كما رأينا داخل قميصه وألغام الآخر- كما يقول في نص آخر «فالجبهة الثانية تطهير الأرض من الألغام حتى يمكن للجبهة الأولى أن تتقدم»[25] إن صح كذلك أن نعتبر «**الآخر**» مجرد ألغام في أرضنا ولم ينجح استغرابه في أن يطهّرها منها اللّهم إلا بكلمات مجردة عامة أقرب إلى التبشير والتبعية الأيديولوجية الحماسية.

نلاحظ أن **حنفي** عندما يعلن انتهاء «**الآخر**» وأفوله فإن الإعلان لم يكن منطلقه واقعه السياسي، وإنما من التعثر الفكري الذي يمر به الغرب. صحيح أن التاريخ محكوم بالبدايات والنهايات لكن أفول نجم الشرق الماضي وسطوع في الغرب لم يكن بفعل الحتمية للنهوض بالتحديد في الغرب، وإنما لأن الغرب تحديداً، هو من قدّم الجواب على الأزمة آنذاك- وأخذ زمام المبادرة، وأين حال

([24]) حسن حنفي، **مقدمة في علم الاستغراب**، ص 787.

([25]) المصدر نفسه، ص 750.

الشرق من هذا كله اليوم. فليس بالضرورة أبداً أن يؤدي أفول الآخر إلى حتمية نهضة الـ«**نحن**» وهذا ما تؤكده المرحلة الراهنة بكل وضوح التي عدلت الكثير من القواعد السابقة في ظل العولمة وأدخلت الجميع في الفوضى الشاملة التي يواكبها العالم- وانطلاقاً من هذه المتغيرات جميعها، يصعب على استغراب **حنفي** أن يقدم جواباً، لأنه يحمله مسؤولية سياسية على أكتاف مشروع ثقافي يقوم بالأساس على تسقط مثالب الحضارة الغربية المادية، ويتناولها دونما الفصل والتمييز بين ما هو ثقافي وما هو سياسي. ويضع **الاستغراب** في المواجهة ورداً على **استشراق** مضى لمرحلة أخرى من نوع آخر من التطور.

وهنا نرى ضرورة طرح السؤال على **حنفي** فإذا كان الغرب- كما يرى- في حالة أفول طبيعية وفقاً لمنطق السيرورة التاريخية التي يحكمها مبدأ الحتمية الذي يؤدي وفق المراحل التي يمر بها الوعي الأوروبي **(البداية، الذروة، نهاية البداية، بداية النهاية)**. وإن كان تبادل الأدوار يتم حتمياً فلماذا يضع على جدول أعمال الشرق وبالدرجة الأولى مهمة ردّ الغرب إلى حدوده الطبيعية، وإنهاء تمثيله المركزي للحضارة الإنسانية؟

وكذلك نتساءل إذا كانت «**الأنا**» أنا **حنفي** ستجد حلاً لمشكلتها وتنهي تغريبها؟

الجواب بالطبع سيكون بالنفي لأننا أمام شكل من أشكال أزمة وجود، أزمة نوعية، وجود الفرد هنا وهناك. شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً. كل هذه التسميات والتقسيمات لا تغير شيئاً في جوهر الأزمة الشاملة. فرغم الكم الهائل من المشاريع العربية التي أنجزت لهذه المهمة فك الأسر عن «**الأنا**» وإثبات كينونتها لكنها أخفقت وأدّت إلى بروز عوامل أسهمت في ألا تحدث عملية تراكم لهذه المشاريع، وهكذا بات معظمها يشكّل جذور منعزلة في محيط واقعنا الثقافي والفكري الموحد في تخلّفه، وأصبح كل مشروع بداية جديدة، رؤية مفتقدة الجذور بدلاً أن تكون مؤشر لظهور **نموذج/ باراديغم** بديل يحل محل القديم.

قراءة تحليلية نقدية في مشروع مقدمة في علم الاستغراب. (للمفكر حسن حنفي)

من هنا نقول وما أدرانا أن **علم الاستغراب** نفسه هو أحد المشاريع التي انتهت بمجرد انتهاء المرحلة **(الشعور بثقل النكسات القومية)**.

من هنا فإن وعي «**الآخر**» وعياً موضوعياً ونقدياً، سيكون أحد المحفزات الأساسية لاكتشاف الذات فكراً وقيماً وأنماطاً حضارية. ولا ينبغي أن ننظر إلى «**الآخر**» كما يرى **حنفي** أنه منبع شرنا وكل مآسينا الآنية ومن ثم يجب التخلص منه.

لذا لا ندعو إلى مواءمة بين «**الأنا**» و«**الآخر**»، وإنما ندعو إلى بلورة الأطر المناسبة للإفادة المتبادلة عن طريق الحوار والتفاكر المشترك بين «**الأنا**» و«**الآخر**».